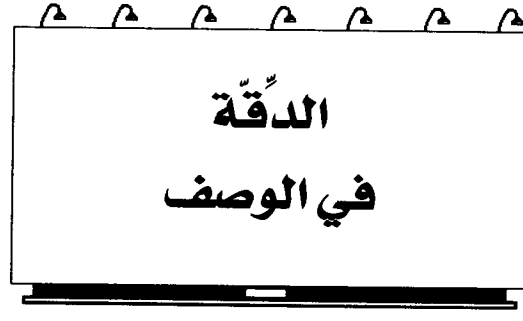
الدِّقّة
في الوصف

الدقة في الوصف

حينما يتمكن الإنسان من لغته، ويحسن التعامل مع إبداعها وجمالها، وثروتها الكبيرة في المفردات والتراكيب والأساليب، ويعرف مواطن بلاغتها وبيانها، فإنه - بذلك - يصبح قادراً على التصرُّف في فنون القول، مبدعاً في استخدام الأساليب البديعة، والصور البلاغية، والإيحاءات البيانية التي تمتلئ بها ساحة (اللغة العربية)، وتصبح رَهْن إشارته وطَوْع بنانه، يتصرَّف في فنونها أحسن تصرُّف، ويصوغ أقواله بأساليبها ومفرداتها وتراكيبها أحسن صياغة.

اللغة «كنزٌ كبير» إذا استطاع الإنسان أن يعرف طريقه، أجاد وأبدع، وأثَّر في سامعيه وأقنع.

اللغة «ثروة عظيمة» إذا اجتهد الإنسان في اكتسابها وجد طريقه إلى النجاح في علاقته بالناس ممهَّداً، وبابه الذي يفضي إلى واحة الإبداع مفتوحاً، وجسر التأثير في المخاطبين ممدوداً.

الفرق كبير بين وصف المبدع لموقفٍ من المواقف، ووصف غير المبدع، وهنا سر التفاضل بين البشر في بلاغتهم وبيانهم وصاحبة الحرير الأخضر خير مثلٍ على أهمية التمكُّن من اللغة وأساليبها وتراكيبها ومفرداتها.

إنك لا تُخطئ مكان الإبداع والإجادة في أي قولٍ رُوي عن عائشة رضي الله عنها، حتى إنَّها لجديرة بأن تكون في مقدِّمة المبدعين في مجال الكلمة في أدبنا العربي الإسلامي، وجديرةٌ بأن يكون لأقوالها وأحاديثها وأخبارها مكانُ الصَّدارة فيما نقدِّمه لأجيالنا من مناهج اللغة والأدب التي تهدف الى رفع مستواهم اللغوي، وإلى ربطهم بإبداعات لغة القرآن وكنوزها.

عائشة - رضي الله عنها - تقف من هذا المجال في قمّته السامقة.

وئيد الأرض

قالت عائشة: خرجتُ يوم الخندق أقفو بالناس، فسمعتُ وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه ابن أخيه الحارث ابن أوس، يحمل مِجَنَّه، فجلستُ إلى الأرض، فمرَّ سعدٌ وعليه درع قد خرجتْ منه أطرافه، فأنا أتخوَّف على أطراف سعد - وكان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أعظم الناس وأطولهم - فمرَّ وهو يرتجز:

لبِّثْ قليلاً يَشهدِ الهيجا جمل ما أحسن الموتَ إذا حان الأجلْ

فقمتُ فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفرٌ من المسلمين وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيه رجل عليه نشيعة - تعني المِغْفرَ -، فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري - والله - إنك لجريئة، وما يؤمّنك أن يكون بلاء أو يكون تَحوُّز، فمازال يلومني حتى تمنَّيت أن الأرض انشقَّت بي ساعتئذٍ فدخلت فيها، فرفع الرجل النَّشيعة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيدالله.

فقال: يا عمر - ويحَك - إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟! قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من قريش يقال له: ابن العَرِقَة بسهم، وقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة، فأصاب أَكحلَه فقطعه، فدعا اللّهَ سعدٌ فقال: اللهم لا تمتني حتى تُقرَّ عيني من قريظة، قالت: وكانوا حلفاءَه ومواليهُ في الجاهلية.

قالت: فَرَقَأ كَلْمهُ، وبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ولحق عُيَيْنَة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصَّنوا في صياصيهم، ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبَّةٍ من (أَدَم) فضُربتْ على سعدٍ في المسجد، قالت: فجاءه جبريل عليه السلام وإنَّ على ثناياه لنَقْع الغبار فقال: أَوَقد وضعتَ السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكةُ بعدُ السلاح، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم.

قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأْمتَه وأذَّنَ في الناس بالرحيل أنْ يخرجوا، فخرج رسول الله ﷺ فمرَّ على بني غَنْم وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مرَّ بكم؟، قالوا: مرَّ بنا دِحْيَةُ الكلبي - وكان دحية الكلبي تُشْبِهُ لحيَتُه وسِنُّه ووجهُه جبريلَ - عليه السلام - فأتاهم الرسول ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد حصارهم، واشتدَّ البلاءُ قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروا أبا لبابة بن عبدالمنذر فأشار إليهم أنه الذبح.

قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: انزلوا على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه إكافٌ من ليفٍ قد حمل عليه، وحَفَّ به قومُه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك وأهل النكاية ومن قد عَلِمْتَ.

قالت: ولا يَرجع إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم. حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألاّ أبالي في الله لومَّة لائم. قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأَنْزِلوه»، فقال عمر: سيدنا الله.. قال: «أنزلوه»، فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقْتَل مُقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتقسَّم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله: ثم دعا سعدٌ فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيِّك من حرب قريشٍ شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك، قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برئ منه إلا مثل الخُرْص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، قالت: فوالذي نفس محمدٍ بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال علقمة: فقلت: أي أُمَّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟

قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[1].

هذا خبر كامل، لقصة كاملة، آثرتُ أن أنقله هنا كاملاً، لنتمكن

(١) تفسير ابن كثير، جـ: ٣ص: ٥٨٩، تفسير آيتي ٢٦، ٢٧ من الأحزاب.

من التجوُّل في ساحته البيانية بحرية كاملة، نستطيع أن نعرف - من خلالها - سمات ومعالم اللغة الراقية التي تتحدث بها (صاحبة الحرير الأخضر) - رضي الله عنها - تلك اللغة التي جعلتها قادرة على الوصف الدقيق.

فهيَّا بنا إلى جولةٍ أشعر أنها ستحقق لنا من المتعة ما سوف يسعدنا ويطربنا.

دوحةٌ بلاغيَّةٌ

في الخبر السابق تبرز لنا (بلاغة لغة القرآن) كما تبرز الشمس في يوم لا تشتكي أجواؤه من غيم، ولا غبار.

«سمعت وئيد الأرض»: هكذا تختار (صاحبة الحرير الأخضر) كلماتها؛ لأنها تعرف معاني ما تختار بدقةٍ ودراية، فالوئيد كما ورد في معاجم اللغة، الصوت الشديد، وهو واحد من معاني هذه الكلمة، وهو المعنى المقصود في كلام (عائشة) رضي الله عنها. إنها صورة بلاغية بديعة، فهي لم تقلْ: سمعت وقع خطواتٍ ورائي، أو غيرها من العبارات المعتادة، كلا، إنه صوت وئيد الأرض التي تهتز تحت قدمي بطلٍ من أبطال الإسلام كان متجهاً مع ابن أخيه إلى الخندق حيث يرابط الرسول ﷺ مع أصحابه في مواجهة الأحزاب.

ليس هنالك كلمة دقيقة تصوِّر مشيَ الفارس إلى ميدان المعركة مشياً شديداً سريعاً مثل كلمة «وئيد»، فإذا أضيفت الكلمة إلى «الأرض» فقد أصبحت صورة بيانية راقية، واستعارة جميلة ماتعة.

وفي هذا التعبير العائشيّ براعة استهلال للخبر، تلفت النظر وتستثير الاهتمام، وتقدح في ذهن المستمع شرارة خيالٍ واسع ترسم

صورة متكاملة لشخصية ذلك الذي يمشي مشياً يجعل للأرض من تحته وئيداً.

ولا تقف (صاحبة الحرير الأخضر) عند هذا الحد من جمال التعبير، ودقة التصوير، بل إنها توغل في استكمال رسم ملامح الصورة فتصف سعد بن معاذ بعظم الجسم وطول القامة، حتى إن أطرافه قد أعجزت درعه الصغير فما استطاع أن يغطِّيها، وهذا الوصف لا يأتي من باب فضول الكلام وزيادته دون فائدة، كلاَّ، فإنه وصف مهمٌّ للربط بين أجزاء الخبر ربطاً مثيراً مشوِّقاً، فهي تقول بعد وصفها لقصر درع سعد: «فأنا أتخوَّف على أطراف سعد» لماذا هذا التخوُّف؟

لأنه مرتبط بما حدث لسعدٍ بعد ذلك.

وهنالك مقدرة بيانية أخرى تتجلَّى في الخبر، تتمثَّل في رواية عائشة لبيت الشعر الذي كان يرتجز به سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو يهز الأرض تحت قدميه: لبِّث قليلاً يشهد الهيجاجَمَل....

هل كانت عائشة تحفظ هذا البيت من قبل، أم أنها حفظته من إنشاد سعدٍ له، كلا الأمرين يؤكدان توقُّدَ ذهنها، وقوَّة حفظها وفهمها.

ثم تقول: «فجلست إلى الأرض» وقد فعلَتْ ذلك لكيلا يراها سعد، فهي تختبئ، ولذلك لم تكتف بقولها: «جلست» مع أنها تؤدي

معنى الجلوس، وإنما قالت جلست إلى الأرض، لأنها تؤدي معنى زائداً يفيد الالتصاق بالأرض للاختباء والاختفاء.

وهذه الدِّقة في استخدام العبارات والجمل لا تأتي إلا من دراية خاصة باللغة ومعانيها العميقة، وهذه الدراية هي التي جعلت عائشة تقول أيضاً: «فاقتحمت حديقة»؛ لأن الاقتحام يناسب حالة الذي يختبئ خوفاً من أن يراه أحد، فهو لا يمشي المشي المعتاد، ولا يسلك الطريق المعروف، وإنما يقتحم المكان من موقع غير معروف كي يتيح له الاختباء.

ولكن هذا الاقتحام لم يكن ذا جدوى؛ لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رآها، وقد صورت الحالة بقولها: [فاقتحمتُ حديقةً، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيها رجل عليه نشيعة].

هنا تكتمل صورة الإبداع في وصف الحالة، حيث يظهر لنا عنصر المفاجأة واضحاً مؤثِّراً، فهي اقتحمت الحديقة ظناً منها أنها خالية، ولكنَّ الأمر كان على خلاف ما ظنت؛ ولهذا استخدمت أداة المفاجأة هنا: فإذا فيها، وإذا فيها، وبهذا يسمو التعبير البياني، وتتجلَّى صور البلاغة العائشية، وتزيد الأمر جمالاً بقولها: وفيها رجل عليه نشيعة.

ما هذه النَّشيعة يا صاحبة الحرير الأخضر، ولماذا تستخدمين هذه الكلمة بالذات؟

النَّشيعة هي: المِغْفَر، وهو مصنوع من الحديد يوضع على رأس الفارس وينحدر على الوجه والعُنُق، لحمايته من ضربات السيوف في المعركة.

أما النَّشيعة فهي من النَّاشع وهو: الناتئ البارز، والبروز صفة من أهم صفات المغفر.

ولعلَّ رؤية عائشة - رضي الله عنها - للمغفر بارزاً مانعاً من معرفة وجه صاحبه هي التي جعلتها تستخدم كلمة نَشيعة دون «مِغفر».

إنَّ بلاغتها وبيانها، وثروتها اللغوية هي التي تجعل عندها هذه القدرة الفائقة على الاختيار والانتقاء.

وحينما أرادت أن تصوِّر شدَّة لوم عمر رضي الله عنهما لها على جرأتها وحضورها إلى هذا المكان المفعم بالخطورة قالت: [تمنيت أن الأرض انشقَّت بي ساعتئذٍ فدخلت فيها]. إنها صورة حالة التأثر والندم على الحضور إلى هذا المكان.

وماذا بعد؟

لابد أن نرى الصورة كاملة الملامح، لا سيما وأنَّ صدى كلمة نَشِيعَة ما يزال في آذاننا، وشوقنا إلى معرفة صاحب النشيعة ما

يزال في نفوسنا، وهنا تقول عائشة: فرفع الرجل النشيعة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيدالله حيث أخذ يدفع عن عائشة شدَّة تأنيب عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم جميعاً -.

وماذا بعد؟

تكتمل حلقات الصورة، وترتبط أجزاؤها ببعضها، فهذا رجل من قريش يرمي سعداً بسهم قائلاً: خذها وأنا ابن العَرِقة، فيصيب السهم العرق الأكحل من ذراع سعد بن معاذ فيقطعه.

هنا نتذكر وصف عائشة لدرع سعد بالصغر، وحديثها عن خروج أطرافه، وتخوُّفها من ذلك.

لقد حدث ما كانت تتخوَّف منه، ولكن سعداً يسأل الله عز وجل ألاَّ يميته حتى يُقرَّ عينه من بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين.

تقول صاحبة الحرير الأخضر: فَرَقأ كَلْمُه، أي سكن جرحه ووقف دمه.

ثم تمضي قافلة التصوير البياني في طريقها الجميل واصفة لنا هبوب الريح على الأحزاب وتفرُّقهم وهزيمتهم، وتلك القُبَّة التي أمر الرسول ﷺ أن تضرب في مسجده المبارك لتمريض سعد بن معاذ، وذلك النَّقْع من غبار المعركة الذي يبدو على ثنايا جبريل عليه

السلام، وذلك الحصار لبني قريظة في حصونهم، وذلك الحكم العادل من حليفهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، وتلك الدعوة الأخرى من سعد أن يقبض الله روحه إن كان في علمه أن حرب قريش مع رسول الله عليه والصلاة والسلام قد انتهت، ثم تختم عائشة الخبر بتصويرها لحالة الحزن التي عاشها الرسول ﷺ وأصحابه على وفاة صاحب الدرع الصغير سعد بن معاذ.

وما أجمل قولها - رضي الله عنها - «فو الذي نفس محمدٍ بيده» هكذا تحلف يمينها بالله عز وجل ذاكرةً اسم حبيبها عليه الصلاة والسلام، ويالها من لَفْتةٍ عاطفية مؤثرة، فهي لم تقل «والذي نفسي بيده» وإنما قالت: والذي نفس محمد بيده، وكأنما أرادت أن توحي لنا بالحقيقة الراسخة التي تؤكد تفردها بحب رسول الله ﷺ الكبير، فهي جزء من نفسه الكريمة؛ لأنها أحب زوجاته إليه، وأقربهنَّ إلى قلبه الطاهر الكريم.

أرأيتم كيف تكون دوحة البلاغة جمالاً وخُضْرةً وظلالاً وارفةً، وثماراً شهيَّة؟